الفصل الحادي عشر

خرج "فايز" من القصر, اتجه إلى ركن قصي من الحديقة, حيث سقيفة هُيئت من شجيرات العنب, بين يديه كمبيوتر محمول ورزمة من الورق, يتهيأ لدخول عالمه الافتراضي, عالم "الفيس بوك". بمجرد جلوسه جاء "ياسين" بفنجان قهوته, وطفق عائدًا إلى جوف عالمه دونما كلمة. آليان يجمعهما مكان واحد, لكل منهما عالمه الخاص وأحزانه الخاصة, وروتين محدد لا يحيد عنه, وكثيرًا ما يمر اليوم ولا ينبس أحدهما للآخر بمحض كلمة.

لم تعد علاقة "فايز" ب"ياسين", علاقة سيد بخادم, ولكن روحين تربطهما منطقة مشتركة من الألم. "فايز" يُشفق على "ياسين", ويعلم أنَّ مأساة "ياسين" جزءً من ملحمته الكبرى, لكونه السَّبب المباشر في موت "طاهرة". المفارقة التي تشعره بالمرارة؛ أنَّه رغم هذه المباشرة لم يكن له يدًا في هذا الحدث الجلل. حقًا كان عنصرًا رئيسيًا في الفاجعة, ولكن بلا إرادة, وبلا وعي. أزمة بيت العناكب, في مرتها الأولى, يرجع إليها النَّصيب الأكبر في تعقيد الأمور وتسارعها بشكل لم يكن في حُسبان أحد! هذا الموقف العصيب, الَّذي مر به سيدها "فايز", روى نبتة الحب في قلب "طاهرة" البريئة, لتترعرع وتزهر, وربما ما نمت على هذا النَّحو إلا للظرف الأليم الَّذي عاشه السَّيد الكريم, المُغدق عليها عطفًا وحنانًا, مدفوع بوازع إنساني بحت!

"طاهرة" منذ تفتحت للحياة, وهي ترى "فايز" سيدًا مغايرًا, غير السَّادة المتأنقين "بالسِّموكن", وغير السَّيدة "جيهان" "الطَّاووسية" في أدق التَّفاصيل. وما كان الحب الَّذي تفجر في قلب "طاهرة" عنيفًا فياضًا آتيًا من فراغ, ولم يتكئ أيضًا على تخطيط, هو عفوي موجود منذ وعت الشَّابة للحياة. خليط عواطف شتى, يحتاج لطاقة تهصره إلى بلورة حب براقة, كما يحول الضَّغط

ذرات الكربون إلى ماس. وجاء مأزق "فايز" في بيت العناكب بمثابة الطَّاقة التي بلورت الحب وفجرت ينبوعه في قلب الفتاة. حُزنها الشَّديد من أجله, جَمَّع روافد مشاعرها تجاهه في نهر هادر صب في بؤرة القلب, لتتفتح عينيها, وتعترف لنفسها صراحة بقدر الحب المتأجج داخلها لسيدها "فايز".

وكما السِّحر, وجدت "طاهرة" قلبها يخفق غير الخفق, وعيناها تنظر "فايز" بشكل مغاير, ما جعل "ياسين" يلتهب بحلم ظنه مُد البصر, وما جعل قلب الأم "جيهان" ينتفض هلعًا, لعلمها برهافة الابن الموروثة عن أبيه "معتز", وكون انسياقه وراء هذه العاطفة ليس ببعيد, كما انساق "معتز" يومًا, وغُرزت قدماه في علاقة من نفس النَّوع, استفحلت إلى زواج.

ولم تحتمل "طاهرة" لفح الحب, وانطلقت العاطفة من مكمنها جياشة, ناسية متناسية أنَّ علاقة الخادم بسيده علاقة مُحكمة بسياج من نار, لا يجوز فيها مثل هذه العاطفة. وكان "فايز" غارقًا في أحزانه, لا يدري بشيء, لم يستيقظ من غفوته إلا على ارتطام "طاهرة" بأرض الواقع؛ فينكسر عنقها, وتنفك روحها الشَّفيفة من جسدها الرَّقيق.

ولم تكن "جيهان", وهي التي تستشعر قرب منيتها, لتترك "فايز" لقمة سائغة ل"ياسين" وابنته, فأرادت أن تضع حدًا لهذا الأمر, قبل أن تغادر الحياة. ومع أنَّ الحزن غمرها, يوم ألقت "طاهرة" بنفسها من أعلى القصر, بيد أنَّها شعرت براحة لانفضاض الأمر إلى غير رجعة. هي لم تُرد هذه النِّهاية المأسوية للفتاة, ولم تخطر لها ببال, وما امتدت يدها على "ياسين", بالصَّفع أمام ابنته, إلا لتكسر شوكتهما وتُسقطهما من السَّماء الملعونة التي يُحلقان فيها. فكون "فايز" أُهين وانكسر في بيت العناكب, فهذا لا ينفي عنه صفة السَّيد صاحب الجاه والمال, والَّذي من المفترض أن تظل عيون الخدم ترهبه, ولا ترتفع إليه قيد أُنملة, ولا يفكروا فيه بطريقة لا تتناسب مع مكانته.

"جيهان" لدغها ذات الأمر سابقًا, وآلمها أشد الألم, يوم صُدمت بزواج "معتز" زواجًا عرفيًا من فتاة من العوام, لم تكن خادمة بالقصر, كانت عاملة بسيطة من عاملات النَّادي, خفق قلب زوجها لها فتزوجها وأنجب منها ولدًا, هكذا فعلها "معتز" بمنتهى البساطة, غير مكترث بأي شيء, ولا أنَّه بزيجته هذي جعل

شريكًا لابنه "فايز" في ميراث الأقدمين. وكم اجتهدت لتُنهي الأمرود يًا, بالتَّعاون مع عمها والد "معتز", فضغطا على "معتز" بحتمية الطَّلاق, وأعطوا الفتاة من المال ما يجعلها تعيش عيشة كريمة, شريطة أن ترتحل بولدها بعيدًا عن عين "معتز", ولم يخلو الأمر من تهديد ووعيد, إذا ما ظهرت ثانية في سماء العائلة, وكانت المفارقة أن سرعان ما رحل "معتز" عن الحياة بآسرها, مات كمدًا من مغبة الفراق.

وماتت "طاهرة" لذات الفجوة القميئة بين البشر, والتي سعى "فايز" لدحرها, فزجت به إلى بيت العناكب, ما جعله يفكر, أنَّ بعض البشر في هذه الدُّنيا, يتحركون كما بيادق على رقعة شطرنج, توزع عليهم أدوارًا لا تناسبهم, وأحيانًا تتناقض مع مكنون ذاتهم, فقد يظهر المدافع عن قضايا الإنسانية, في دور القاتل الملطخة يداه بدماء الأبرياء من البشر, نفس البشر الذين كان يدافع عنهم ويقاتل من أجل قضاياهم.

و"ياسين" يبغض "فايز" من أعمق أعماق قلبه, بُغضًا لا براء منه ولا شفاء, ويوم ماتت "مها" ليلة الزِّفاف, والانتكاسة النَّفسية التي مربها "فايز" من بعد- كان يوم تشفي عظيم, وسعادة جمَّة ملأت قلب العجوز, فها هو "فايز" يرشف من نفس الكأس الَّذي تجرع منه منية "طاهرة". وفي نوبات الصَّرع التي زادت, وصارت تتناوب "فايز" على فترات متقاربة, بسبب حالته النَّفسية السَّيئة, تأتيه في اليوم مرتين وثلاث- ما شعر "ياسين" بذرة شفقة تجاهه, فيتركه في نوبته يغمره العرق والزَّبد, وأحيانًا البول والغائط, حتى يستفيق من النَّوبة, فيجر نفسه إلى الحمام جرًا, يغتسل من قاذوراته. وكثيرًا ما استيقظ ليلًا, على صرخات "فايز" وتشنجاته, وأبدًا ما تحرك من موضعه. كان وجوده بجوار "فايز", في هذه الفترة العصيبة من حياة الشَّاب, بغية التَّلذذ بالمتابعة عن قرب.

نار اشتعلت في قلب "ياسين"؛ بسبب قصة الحب العنيفة التي جمعت "فايز" ب"مها", وكأنَّ "طاهرة" ما كانت موجودة يومًا, وكلما رآه سعيدًا برفقة فتاته, مُحلقًا بين سحائب السَّعادة, اشتعل الغيظ في القلب, وتمنى أن يراه ساقطًا على جذور رقبته, كما سقطت "طاهرة" من أعلى القصر تحت قدمي "جهان".

ولم يكن "ياسين" ليذهب وينسى, كان الكره المستفحل في قلبه والرَّغبة في القصاص يكبلانه بالمكان, مثل كويكب صغير, مصمم على الدَّوران حول نجمه العملاق الآفل, يمنعه عن الانفلات ومتابعة الحياة, التَّشفي في ربه الَّذي ظنه يومًا خالدًا لا يأفل.

***

تململ الغراب على غصن الشَّجرة المتدلي, للصمت الَّذي طال بين الشُّرطي و"ياسين", فنعق متبرمًا, شارخًا السُّكون الممل, مُخرجًا الرَّجلين من أفكارهما ليعودا للحوار الشَّائق.

وتابع الشُّرطي بعدما اعترته رجفة, فبدا مستيقظًا من غفوة:

- بخلاف أنَّ الورثة قد يتعجلون موت "فايز"؛ من أجل التَّنعم بالميراث, فهناك دافع أقوى بكثير!

قطب "ياسين" جبينه, مسايرًا الشُّرطي رغم توجسه:

- ما هو؟!

فرقع الشُّرطي بإصبعيه:

- "فايز" كان ينتوي التَّبرع بكل ثروته للجمعيات الخيرية, كلف المحامي بالسَّعي في الإجراءات قبل مقتله بأسبوع واحد. وفي الغالب هذا ما استفز الورثة فقتلوه!

اقترب "ياسين", وهمس:

- لقد تحدثنا يومًا, أنَّه وريث واحد, ل "فايز" وريث وحيد سيرث كل هذه الثروة. هل نسيت؟!

فغر الشُّرطي فاه, وتمتم:

- وريث واحد؟!

أومأ "ياسين" برأسه حنقًا:

- وموجود بالخارج, وأنت تعلم.

هز الشُّرطي رأسه معترضًا:

- صدقني لم أعلم سوى الآن.

أشاح عنه "ياسين" متبرمًا إلى حيث الغراب, في حين مكث "الشُّرطي" يفكر

قليلًا, قبل أن يسأل:

- وكيف علم وريث "فايز" بأمر التَّبرع وهو بالخارج؟!

ضم "ياسين" كتفيه النحيلين دونما يلتفت:

- العلم عند الله.

مسح الشُّرطي وجه "ياسين", وجعل يهرش كرشه الممتد:

- هذا أمر محير حقًا, ماذا تظن قد حدث؟!

لم يحر "ياسين" جوابًا, مكتفيًا بالنَّظر إلى الغراب المتابع ما يدور.

انتقل الشُّرطي ببصره هو الآخر, إلى حيث تستقر نظرات "ياسين", فتراجع الغراب مرتبكًا للخلف خطوة؛ يبحث عن مكمن بين الأوراق يتوارى فيه.

سعل الشُّرطي, وقال:

- بالتَّأكيد أخبر أحدهم الوريث بالأمر.

تمتم "ياسين" بلا مبالاة, لا يرفع عينيه عن الغراب المرتبك من نظراته:

- ربما.

أكد الشُّرطي, يتابع عيني "ياسين":

- المحامي حدثني عن طبيعة "فايز" العفوية البسيطة, ومن سيرث كل هذه الثَّروة من بعده, لن يتركه دُونما متابعة!

وبدا عليه أنَّه انتبه لأمر, فاستطرد:

- ولكن أخبرني, هل تعرف شيئًا عن هذا الوريث الوحيد, وما قرابته من "فايز"؟!

ثُمَّ ضغط على مخارج الحروف:

- من المفترض أنَّكما على اتصال, فأنت حارس القصر حتى يعود!

ضحك "ياسين":

- لست بحارس للقصر, أنا لا أتجرأ أن أخطو خطوة واحدة داخله!

ورمقه العجوز بنظرة سريعة من أعلى لأسفل:

- وأنت أدري بمن حارسه!

زوي الشُّرطي ما بين عينيه لكلمات الرَّجل:

- فلنقل حارسه افتراضيًا, ولو لم تقم بمهامك كما ينبغي!

- يكفي أنَّك تقوم بمهامك كما ينبغي!

هرش في كرشه:

- أنا شُرطي أبحث عن الحقيقة!

غمز "ياسين" بطريقة لم يفهمها الشُّرطي:

- تريد أن تصل للحقيقة لتستريح.
- العدالة ستستريح!
- لتنتقم!
- القانون سينتقم!

هز الغراب رأسه مؤمِّنًا على حديث الشُّرطي, في حين قال الشُّرطي ضجرًا من مراوغة "ياسين":

- لقد ابتعدت بنا عن الموضوع!
- أي موضوع؟!
- قرابة الوريث ب"فايز", وماذا يعمل, ولماذا هو في سفر؟! بالتَّأكيد أنت تعلم الكثير في هذا الأمر!
- يكفي أن تعلم أمرًا واحدًا!

انتبهت حواس الشُّرطي, ونفش الغراب ريشه, ومد عنقه:

- ما هو؟!
- قرابة الوريث ل"فايز"!
- وهذا ما أسألك عنه!

قال "ياسين":

- إخوة!

فغر الشُّرطي فاه, وانتفض الغراب من مكمنه:

- إخوة!

هز "ياسين" رأسه بشكل تمثيلي, لا يتناسب مع هيئته الجادة والحزن الجاثم على صدره:

- أي نعم!
- كيف؟!

obeikandl.com

- كما أقول لك!
- ما أعلمه أنَّ "فايز" وحيد أبويه! المحامي نفسه أخبرني بذلك!

رفع "ياسين" سبابته معترضًا:

- "فايز" وحيد "جيهان" فقط, وليس "معتز"!
- وهل كان "معتز" متزوجًا بأخرى؟!
- "معتز" أنجب ولدًا, من سيدة تزوجها سرًا! وهذه قصة طويلة لم يكن "فايز" يعلم عنها شيئًا, أمه "جيهان" كانت حريصة على إخفاء الأمر عنه تمامًا, حتى أنَّه مات دُونما يعلم أنَّ له أخًا في هذه الدُّنيا.
- وكيف علمت بالأمر؟!
- نحن الخدم نعلم من أسرار البيوت ما لو علمه السَّادة لشابت رؤوسهم. يظنون أننا مثل قطع الأساس, لا نسمع ولا نرى, في حين أننا نعلم أدق تفاصيل حياتهم.
- عجيب هذا الأمر!

ضحك "ياسين" بشكل مبالغ فيه:

- العجيب أنَّك لا تعلم!

هز الشُّرطي كتفيه:

- وكيف أعلم, والمحامي لا يعلم حقيقة الوريث؟ و"فايز" ذاته لم يكن يعلم!! كان يظن أنَّ أقاربه هم ورثته من بعده, وقد أخبر المحامي في جلستهما الأخيرة, أنَّهم أثرياء بما فيه الكفاية!
- جهات التَّحقيق تعلم بالأمر.
- أنا بعيدٌ عن التَّحقيقات الرَّسمية, لقد تعرفت بالقضية مصادفة عن طريقك, وأنت تعلم!

غمز "ياسين" بعينه:

- تستطيع أن تعلم بطرق أُخرى.
- أنت غريب الأطوار هذه المرة!

ضحك "ياسين" ولم يجب, في حين أردف الشُّرطي:

- دعنا نعود إلى مرجعنا الأول!

- ما هو؟!

فرقع بإصبعيه, ففزع الغراب وكاد يسقط:

- عين الوريث التي كانت تتابع "فايز"! فكر في حرج التَّوقيت, وسرعة التَّنفيذ, حتمًا توجد عين, نقلت للوريث ما كان من أمر "فايز"!

- ربما!

- والمحامي يؤيدني في هذا الشَّك!

واتسعت عيناه, تلتمعان ببريق غريب:

- لدي شك في شخص, هذا الشَّك يتأكد كل لحظة!

ودنا أكثر:

- أقرب شخص ل"فايز" في الآونة الأخيرة! شخص كان يسمع ويرى كل ما يدور, ويقدر أن يعد على "فايز" أنفاسه إن أراد! شخص يعلم من الأمور ما يشيب لها الشَّعر!!

وصار صوته كالهمس:

- وأنتوي عرض الأمر على جهات التَّحقيق, بمجرد حصولي على دليل ملموس يؤكد هذا الشَّك.

اصطدمت يد "ياسين" المضطربة ب"كشاف الضَّوء" في جيب جلبابه, وكان قد نسيه, فقال وعيناه تلتمعان ببريق التَّحدي:

- وما يمنعك أن تحصل على الدَّليل, وأنت تقدر؟!

وضحك:

- أنت بالذات تقدر!

زوي الشُّرطي ما بين عينيه, ومد الغراب عنقه متسائلًا:

- ماذا تقصد؟!

ضرب الغراب بجناحيه في توتر, منتقلًا من مكمنه إلى طرف الغصن, فبات على رأسيهما تمامًا.

قال "ياسين" ساخرًا:

- تعلم مقصدي!

- لا داعي للألغاز!

تحسس "ياسين" زر "كشاف الضَّوء" قبل أن يجيب:

- تستطيع أن تتخفى في صورة كائن ما!

وضغط على مخارج الحروف, وأردف:

- قطة مثلًا!

انعقد حاجبا الشُّرطي متعجبًا:

- قطة!

- وتقترب من وريث "فايز", وتعلم الحقيقة!

لم يتمالك الشُّرطي نفسه, فانفجر ضاحكًا, وتهالك على أقرب مقعد:

- ماذا تظنني بالضَّبط يا "ياسين"؟!

انتفض "ياسين" من مقعده, وأخرج "كشاف الضَّوء" من جيب الجلباب, وسلط عمود الضَّوء على كرش الشُّرطي:

- أظنك شبح!

مد الغراب عنقه تجاه "ياسين", ونعق نعقه بدت كاعتراض, وتسمَّر الشُّرطي يحدق في "ياسين" الَّذي بُهت.

وحلق الصَّمت لفترة, ثُمَّ انفجر "ياسين" ضاحكًا بشكل هستيري, والشُّرطي يتابع دونما كلمة:

- حسبتك شبحًا!

تبسم الشُّرطي مستخفًا:

- أما زلت تصدق أمر الأشباح يا "ياسين"؟!

هز "ياسين" رأسه مؤكدًا:

- لأنَّها موجودة!

- موجودة أين؟!

أجاب "ياسين" ببطء:

- فوق الشَّجرة!

وسلط عمود الضَّوء على الغراب المتلصص؛ فزعق ألمًا, وطار بكل قوته إلى كبد السَّماء المظلمة.

***

جنَّب "فايز" الكمبيوتر المحمول, ووضع أمامه رزمة الورق, لوحة المفاتيح لا تسعفه في مجاراة الأفكار:

"الكتابة تُطهر النَّفس, تنخر دهاليز إلى الذَّاكرة, تندلق خلالها وتنساب الأرصدة المجمدة من الألم وتأنيب الضَّمير والضَّعف على الورق, فيشفى المرء من هذا الإخراج, كما ينفتح "دمل" فيتطهر الجسد من الصَّديد! غير أنَّ بعض الألم يمتلك من الخبث بأن يلتوي ويعود إلى مكمنه أكثر وجعًا, ملتفًا على نفسه أفعى تفح سمًا, وقد تخلص من حالة الجمود والتَّصلب إلى الحياة وجلد الذات, فتكون الكتابة أوجعت من حيث أرادت الشِّفاء! وهذا ما يحدث معي, كلما انكفأت على الورق أصنع مسلكًا لحمم الحزن, فما تزيدني المحاولة إلا اشتعالًا, وما تزيدني الكتابة إلا تلظي من حمم الذَّاكرة, ولكنَّ الكتابة طريق بلا رجعة, توطدت في حياتي منذ زمن بعيد, وتأججت بعد حادث موت "مها", ومع كمّ الألم الَّذي يعتريني, لا أستطيع سوى الاستمرار, صارت قدرًا يُحركني, طقوس عذاب أمارسها بشكل يومي لا ينقطع, وأحيانًا هي العذاب ذاته, عذاب يستدعي عذاب, أكتب بألم فيفتح القلم زنازين الألم.

جاءني «حسام» بالأمس يطلب مالًا, لم تكن المرة الأولى التي يفعل, ولكنَّها المرة الأولى التي أجده يدخن, كانت سجائر ذات ماركة أجنبية, تسمى «مارلبورو»! يبدو أنَّ الضَّائقة المادية التي يمر بها أفقدته صوابه, كان أشعثًا أغبرًا, وقد فك زر القميص عن تفاحة أدم للمرة الأولى منذ عرفته, هو كثيرًا ما يمر بانتكاسات مادية, في رقبته سبعة أولاد, بخلاف أمه العجوز, يعيشون جميعًا متكدسين في ذات البيت القديم, ولا دخل له سوى عمله الحكومي. منذ فترة أراد أن يحسن مستواه الاقتصادي, فدخل مشروعًا تجاريًا مع إخوة من «الجماعة» بكل ما يملك, فخسر وصار مدانًا.

النَّظرة التي برقت في عينيه, للأموال المكدسة في جوف الخزينة بالمكتبة, أوجعتني بشدة. أعطيته المبلغ الَّذي طلب, وبرأته من الدَّين القديم والجديد على حد سواء, وجعلت أفكر في التَّنفيس عنه وعن المكروبين أمثاله بهذه الثَّروة الطَّائلة التي أملك, لم أقل له ما انتويت, ولكن بمجرد خروجه اتصلت

بالمحامي, وطلبت قدومه لأمرهام؛ فأجابني أنَّه غدًا سيأتي.

«حسام» في مقابلته تلك, طالبني بالتَّوقف عن هجومي على حزبي الاشتراكي في مقالاتي على صفحات الجرائد والمجلات والمواقع الاليكترونية, وأيضًا على «الفيس بوك», فلديه معلومات أنَّهم يتابعون ما أنشر, وأنَّهم غاضبون أشد الغضب, فهي تعريهم وتكشف زيفهم أمام الرَّأي العام, وخاصة أنَّها موثقة بمستندات غاية في الخطورة, كما أخبرني أنَّ «الجماعة» غاضبة هي الأخرى, لأنني نلت منها في أكثر من موضع.

بدا ناقمًا بشكل عجيب على «الجماعة» وهو يقول:

«الحزب و»الجماعة» وجهان لعملة واحدة, تحركهما السُّلطة, وما يصهر الجميع في بوتقة واحدة هي المصلحة!»

أعلم أن حديث «حسام» جاد خطير, ولكنني لا أكترث, لم يعد هناك ما يخيفني أو أبكي عليه, ذهبت أمي, وذهبت «طاهرة», وذهبت «مها», سأُعري القبح الرَّابض في الحياة ريثما يأخذني الموت».

***

القمر مستدير, يتوسط السَّماء, والنُّجوم من حوله تتلألأ, تحتفي بتمام النُّضج, وأشجار القصر الملتفة من داخل السُّور في سياج طبيعي, تتراقص وريقاتها مع هبات النَّسيم.

مُنكفئًا على المكتب, بعدما انتهيت من أوراق «فايز», وفرغ البث. تتابع الأحداث أكبر من احتمالي, أريد أن أبكي, أندب نفسي, أندب «طاهرة», أندب «مها»!

أريد أن أندب الإنسان!!

وفي الأفق «طوسون» يمد يديه.

«طاهرة» روحًا تمد يديها.

«مها» تنبلج مثل فجر, من جوف سحابة بيضاء, تخترشبحًا على أديم السَّماء, ترتدي فستان الزِّفاف الأبيض, وجهها قمري, شعرها منسدل, وثغرها بسَّام.

تمامًا كما كانت تعود «فايز» مساءً.

أراها تشف, تستحيل روحًا, تنضم إلى «طوسون» و«طاهرة» في ندائهم لي بالقدوم.

أحس بأسمال ماديتي تسقط, أشف, أرتقي, أنضم إليهم, ونذهب!!

تمت

خيري عبدالعزيز

دقميرة, ٢٠١٥

obeikandl.com